

قصة الكأس الفضي



حانت ساعة توزيع الهدايا! هدايا من أقصى أركان المعمورة: من فلسطين ومصر والهند وإنكلترا وفرنسا وإيطاليا. ولكم كان المستر رايت حريصاً على عد الحقايب في كل جمرِك حتى لا تمتد يدُ لاختلاس الكنوز التي جلبناها لأحببتنا! لوحات منقوشة من شجر الزيتون الخالص من الأراضي المقدسة، وأشغال تطريز دقيقة من بلجيكا وهولندا، وبُسط عجمية وشالات كشميرية دقيقة النسيج، وصوانٍ من خشب الصندل ذي العطر الدائم من ميسور، وأحجار شيفا من الولايات الهندية الوسطى، وعملات هندية قديمة لدول سادت ثم بادت، ومزهريات وأكواب مرصعة بالأحجار الكريمة، ومنمنمات مزدانة بالرسوم، وبخور و عطور، وأقمشة قطنية ذات صور مطبوعة، ومشغولات مطلية بالورنيش اللّماع، ونقوش ميسور العاجية، ونعال فارسية ذات شكل فضولي، ومخطوطات قديمة مزخرفة بالذهب والفضة والألوان البهيجة، وأنسجة مخملية وحريرية مشجرة، وعمائم غاندي، ومصنوعات فخارية وقرميد وأوان نحاسية وسجاجيد للصلاة. وباختصار غنائم من ثلاث قارات!

بابتهاج قمت بتوزيع الهدايا الملفوفة، الواحدة تلو الأخرى، من الكومة الضخمة. ناولت صندوقاً مستطيل الشكل للأخت غياناماتا ذات السيرة العطرة المباركة والوجه العذب والمعرفة العميقة. وكانت قد أشرفت على المقر الرئيسي أثناء غيابي. فرفعت من بين اللفائف الورقية ثوباً هندياً (ساري) من حرير بنارس الذهبي وقالت:

"شكراً يا سيدي! فهذا الساري يأتيني بروعة الهند ويضعها أمام بصري."

ثم قلت: "وهذه لك يا مستر دكنسون!"

وكانت هديته عبارة عن كأس فضي ابتعته خصيصاً له من أحد أسواق كلكتا، إذ خطر ببالي أنه سيروق له. والمستر دكنسون تلميذ محبوب ومواظب منذ تأسيس المقر الرئيسي سنة ١٩٢٥.

وفي هذا الاحتفال السنوي الحادي عشر وقف أمامي وهو يحل رباط علبته المربعة الصغيرة.

وكان متلهفاً لمعرفة ما تحتويه العلبة وما أن وقع نظره على الهدية حتى قال: "الكأس الفضي!" وهو عبارة عن كوب طويل للشرب. ثم جلس على قيد خطوات مذهولاً على ما يبدو. وقد ابتسمت له بمودة قبل أن أستأنف توزيع الهدايا.

واختتمت الأمسية بدعاء شكر لمانح كل العطايا والهبات. ثم عزفت فرقة الإنشاد ترانيم روحية. بعد ذلك بأيام جلست أتحدث مع المستر دكنسون فقال:

"سيدي، بالله دعني أشكرك على الكأس الفضي. إنني لم أجد الكلمات المناسبة للتعبير عندما تسلمته منك.

قلت: "لقد جلبت الهدية خصيصاً لك."

نظر إليّ بخجل وقال:

"منذ ثلاثة وأربعين عاماً وأنا أنتظر هذا الكأس الفضي. إنها قصة طويلة خبأتها في مطاوي الوجدان. وقد بدأت بدراما غرقى وأنا في الخامسة من عمري. إذ دفعني أخي الكبير مازحاً فسقطت في بركة عميقة في مدينة صغيرة بولاية نبراسكا. وإذ كنت أوشك على الاختفاء تحت الماء للمرة الثانية تراءى لي نور أخاذ متعدد الألوان غمر الفضاء وقد توسطه شكل إنسان بعينين هادنتين وابتسامة تبعث في النفس الطمأنينة.

"وحينما هوى جسمي للمرة الثالثة قام أحد رفاق أخي بإمالة شجرة صفصاف نحيلة حتى لامست الماء كي أقبض عليها بأصابعي اليانسة، ثم جذبني الصبية إلى الشاطئ وقدموا لي إسعافات أولية.

"وبعد اثني عشر عاماً من تلك الحادثة، عندما كنت شاباً في السابعة عشرة، زرت مع أمي مدينة شيكاغو. كان ذلك سنة ١٨٩٣ أثناء انعقاد مؤتمر الأديان العالمي. وإذ كنت أسير برفقة أمي في شارع رئيسي رأيت مرة أخرى فيضاً كاسحاً من النور، وعلى قيد خطوات أبصرت نفس الرجل الذي ظهر لي قبلاً في الرؤية، وهو يمشي بخطوات ونيدة ويقترّب من قاعة محاضرات كبيرة ثم يختفي خلف الباب. فهتفت قانلاً: "أماه، هذا هو نفس الرجل الذي تراءى لي وقت حادثة الغرق!"

"أسرعنا الخطى نحو المبنى، وكان الرجل يتربع على منصة الخطابة وعلى الفور تأكّدنا أنه السوامي فيفيكانندا مندوب الهند. وبعد إلقائه محاضرة ألهمت وكهربت المشاعر تقدمت لتحيته فرحب بي بابتسامة رقيقة كما لو كنا أصدقاء قدماء. كنت إذ ذاك يافعاً لا أعرف كيف أعبّر عن مشاعري، إلا أنني وددت من كل قلبي أن يكون معلماً لي. وقد قرأ ما كنت أفكر به فنظر إليّ بعينيه الجميلتين النفاذتين وقال: "كلا يا بني إنني لست معلمك. فمعلمك سيأتي فيما بعد وسيعطيك كأساً فضياً!" ثم أضاف: "وسيعمرّك ببركات وفيرة لا تقدر على استيعابها الآن."

"تركت شيكاغو بعد بضعة أيام ولم أرَ العظيم فيفيكانندا ثانية. إلا أن كل كلمة قالها سَطرت بكيفية لا تمحى في أعماق وعيي. مرت سنوات دون أن يظهر معلمي الموعود. وفي عام ١٩٢٥ توصلت بقوة لله في إحدى الليالي كي يرسل لي معلمي. وبعد ساعات استيقظت من النوم على أنغام رخيمة وظهرت أمامي فرقة من الكائنات السماوية وهي تحمل الناي وآلات أخرى. وبعد أن ملأت الجو بالموسيقى العذبة اختفى الملائكة بهدوء.

"وفي الليلة التالية حضرت للمرة الأولى إحدى محاضراتك هنا في لوس أنجلوس وأدركت آنذاك أن الله قد سمع دعائي وحقق طلبي."

نظرنا إلى بعضنا وتبسما بصمت.

واستطرد المستر دكنسون: "والآن مضى عليّ كتلميذ لك في الكريا يوغا أحد عشر عاماً، وأحياناً كنتُ أعجب من أمر هذا الكأس الفضي، وأخيراً أقنعتُ نفسي أن كلمات فيفيكانندا كانت مجازية. ولكنك حينما ناولتني الصندوق المربع الشكل رأيت للمرة الثالثة النور الأخاذ. وفي اللحظة التالية كنت أنظر إلى هدية معلمي التي تنبأ بها فيفيكانندا منذ ثلاثة وأربعين عاماً: الكأس الفضي!"

المصدر: مذكرات يوجي: السيرة الذاتية

بقلم: برمهנסا يوغاندا

ترجمة حديثة منقحة: محمود عباس مسعود

ملاحظة: قابل المستر دكنسون سوامي فيفيكانندا في شهر سبتمبر/أيلول من عام ١٨٩٣ – السنة التي ولد فيها برمهנסا يوغاندا (٥ يناير/كانون ثاني). ويبدو أن فيفيكانندا كان على علم بأن يوغاندا قد تجسّد ثانياً وأنه سيذهب إلى الغرب لنشر فلسفة الهند.

في سنة ١٩٦٥ كان المستر دكنسون لا يزال معافى ونشيطاً في عامه التاسع والثمانين، وقد حصل على لقب (معلم يوغا) في طقس خاص بالمركز الرئيسي لجماعة معرفة الذات.

غالباً ما كان يتأمل ولفترة طويلة مع برمهنساجي، ولم يغفل ممارسة الكريا – ثلاث مرات يومياً.

توفي المستر دكنسون في الثلاثين من يونيو ١٩٦٧ وقيل وفاته بعامين تحدث إلى تلاميذ معرفة الذات وقص عليهم تفاصيل ممتعة نسي أن يذكرها لبرمهنساجي، قال: "عندما دنوت من منصة الخطابة في شيكاغو لاتحدث إلى سوامي فيفيكانندا، وقبل أن أحياه قال لي: "أيها الشاب: أريدك أن تتعد عن الماء!"